حديث الأنبياء (٧)

خطيب الأنبياء

شعيب عليه السلام

اسم الكتاب: خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام.

اسم المؤلف: إبراهيم أحمد قشطة.

الطبعة الثانية: ١٤٤٤هـ – ٢٠٢٢م.

خطيب الأنبياء

شعيب

عليه السلام

أ/ إبراهيم أحمد قشطة

رفح – فلسطين
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الطبعة الثانية
طبعة مزيدة ومنقحة

الإهداء

إلى والدي – قدّس اللهُ روحَه – الذي علمني أنَّ الرجال يصنعهم العرق.

إلى والدتي – رزقها اللهُ حسنَ الخاتمة – التي علمتني أنَّ الكلمة الطيبة شجرة وارفة يستظلّ تحتها الناس من قيظ الحياة.

إلى شيوخي وأساتذتي الذين علموني أنَّ الإسلام دين عظيم لو أن له رجال.

إلى زوجتي التي علمتني أنَّ مَنْ لا يحبّ صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر.

إلى أُختيّ اللتين تعلمت منهما أنَّ الأخوة مشاعر جميلة حميدة.

إلى أبنائي أحمد وتسنيم ولمى ومحمّد الذين علموني أنَّ الأبوة أحلى المعاني.

المحتويات

المقدّمة

إنَّ الحمد الله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنَّ محمّدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)

أمّا بعد:

فإنَّ أصدق الحَديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، أعاذنا الله من البدع والضلالات والنيران.

وبعد:

هذا الكتاب السابع من سلسلة (حديث الأنبياء) والموسوم باسم (خطيب الأنبياء شعيب عليه الصلاة والسلام)، ويروي هذا الكتاب قصّة خطيب الأنبياء شعيب – عليه السلام – مع قومه أهل مدين ذوي الثراء والنعم والترف، يروي خبره مع أصحاب الكفر وقطع

الطرق، وسوء المعاملات وبخس أشياء الناس، والصدّ عن سبيل الله، وقد وقع هذا الكتاب في فصلين:

حيث جاء الفصل الأوّل (قصّة شعيب عليه السلام) يتحدث عن: من قوم شعيب؟ وما كان حال قومه؟ وبعثة شعيب – عليه السلام – إلى مدين، ودعوته لهم بألطف عبارة، وأرشق إشارة، كما وذكر الفصل موقف أهل مدين العدائي السيّئ من دعوة شعيب الكريمة لهم، وخُتم الفصل بذكر الهلاك الذي حلّ بهم جزاء وفاقًا.

أمّا الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصّة شعيب عليه السلام) فقد تناول أهمَّ الثمار المستطابة من قصّته عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

الفصل الأوّل

قصّة شعيب – عليه السلام –

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ٨٥)

قصّة شعيب – عليه السلام –

○ تمهيد:

ورد ذكر شعيب – عليه السلام – في القرآن الكريم عشر مرّات، في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والعنكبوت.

وقد كانت بعثته بعد لوط عليهما السلام، حيث قال شعيب: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ (هود: ٨٩)، وقبل رسالة موسى – عليه السلام – على التحقيق؛ لأنّ الله تعالى ذكر نوحًا ثم هودًا ثم صالحًا ثم شعيبًا ثم أعقب هؤلاء بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٣)

قال الصابوني: " قد أخطأ بعض المؤرخين فظنَّ أن شعيبًا كان زمنه بعد موسى بعدّة قرون، وهذا ينافي نصّ القرآن، وقد التبس الأمر عليهم بين (شعيب) وبين (شيعا) أحد الأنبياء الذين لم يذكرهم القرآن الكريم، فظنوا أن شيعا هو شعيب، ومن هنا جاء الخطأ كما نبّه عليه بعض المحقّقين من العلماء." (محمّد الصابوني)

◎ من قوم شعيب عليه السلام؟

قوم شعيب هم أهل مَدْين، ومدين قبيلة عربية، وسميت بذلك نسبة إلى أبيهم مدين بن إبراهيم، ويقال: نسبة إلى مدينتهم التي يقال لها مدين، والله تعالى أعلم بالصواب.

على كل حال: كانت مدين قبيلة عربية تسكن في بلاد الحجاز، ممّا يلي جهة الشام، قريبًا من خليج العقبة من الجهة الشماليّة منه.

قال الطبري: " إنّ بين مصر وأرض مدين ثمان ليال."

(محمّد الصابوني)

وقال الصابوني: " ويظهر أنها في الأرض المسماة الآن (معان)، وهي جنوب فلسطين." (محمّد الصابوني)

◎ قرب مدين من قوم لوط مكانًا وزمانًا:

سكنت مدين أرض معان، وهذا السكن جعلها متقاربة من سكن أهل سدوم مكانًا، كما كانت قريبة منهم زمانًا، قال شعيب: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ (هود: ٨٩) أي: ليس قوم لوط منكم ببعيد لا مكانًا ولا زمانًا، فقربُها مكانًا كان نتيجة أن مدين سكنت في الأرض المسماة اليوم (معان)، وهي جنوب فلسطين، بينما كانت مساكن لوط في أغوار فلسطين، وأمّا قرب مدين زمانًا من قوم لوط

كان بسبب قصر الفترة الزمنية التي كانت بين مدين وسدوم، ممّا هيئ ذلك لها أن تعلم بما حلَّ بهم من عذاب ونكال.

فهل اعتبرت مدين؟!

اقرأ النقطة التالية تجد الجواب فيها!!

◎ حال أهل مدين:

بالرغم من علم مدين بما حلّ بسابقتها سدوم لم تعتبر بها، حيث كفرت بربها وعبدت الأيكة[1] قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ (الحجر: ٧٨) أي: كان قوم شعيب ظالمين أنفسهم بكفرهم، واقترافهم المنكرات الداهيات.

فلم تكن مدين كافرة وحسب، بل كانت تصدُّ عن سبيل الله، وتسعى لجعل الحياة معوجة، وفوق هذا وذاك فشت فيها منكرات عظيمة داهية من قطع للطرق، وإخافة للمارّة والرفيق، وسوء معاملة الخلق بخسًا في الكيل والميزان، وغشًّا في المعاملات، ونقصًا لأشياء الناس، والعجيب أن مدين قد اقترفت ذلك بالرغم من أنهم

---

(١) الأيكة: أي: الشجرة العظيمة الملتفة الأغصان، وقد خصَّ الله أهل مدين بذكر الأيكة بالذات دون سائر نعمهم؛ لأهمية نعمة الزراعة عليهم، والله أعلم.

كانوا ذوي المال والثراء، والأعجب أن مدين قد عدّت هذا العمل منهم أنه مهارة ودهاء في البيع والشراء، لكنه في الحقيقة رذيلة تمسُّ القيم والأخلاق، ولا تكون مثل هذه الأخلاق الخسيسة - غالبًا - إلّا في ظل غياب الإيمان بالله تعالى ربّ الأرض والسماء.

الحاصل: في الجملة كان حال أهل مدين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

والعجب أن سوء حالهم الروحي والخُلقي هذا كان بالرغم من الترف الذي كانوا يعيشونه بفضل الله!!

◎ بعثة شعيب عليه السلام:

لمّا وصل الحال بمدين إلى هذا الحال العفن المُزْرى أرسل الله إليهم أخاهم شعيبًا نبيًّا كريمًا، من نفس القبيلة، يعرفونه، ويعرفون نسبه، ودماثة خلقه.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (الأعراف: ٨٥)، ويقصد بالإخوة أي إخوة النسب والقبيلة، لا إخوة الدين والعقيدة.

وأعطاه الله آية تشهد بصدقه ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ٨٥) أي: قد جاءتكم معجزة باهرة تشهد بصدقي إني مرسل إليكم من الله تعالى.

ما كانت هذه البيّنة؟!

القرآن الكريم لم يذكر لنا ماهية هذه البيّنة (المعجزة) التي جاء بها شعيب كبرهان قاطع على صدقه، ونقول فيها ما قلناه في بيّنة نوح وهود، فلتراجع في قصّتيهما عليه السلام.

◎ دعوة شعيب عليه السلام:

ما أن أُرْسِلَ شعيب إلى قومه إلّا نهض – عليه السلام– في دعوة قومه نهوضًا كبيرًا، فدعاهم – عليه السلام – دعوة حارّة صادقة بليغة، وأوّل ما دعا شعيب قومه إليه هو عبادة الله وحده، قائلًا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ (هود: ٨٤) أي: قال لهم شعيبٌ النبيُّ المرسلُ إليهم: يا قومي أخلصوا العبادة لله.

وقال: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ (الشعراء: ١٧٨) ويترتب على ذلك ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء: ١٧٩) أي: خافوا الله وأطيعوه، بترككم ما يسخطه من الكفر والذنوب والمنكرات.

وقال أيضًا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٤) أي: " خافوا الله الذي خلقكم وخلق الخليقة المتقدمين، قال مجاهد: الجبلة الخليقة، ويعني بها الأمم السابقين."

(محمّد الصابوني)

قال السعدي: " فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم بغير مشارك له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم فقابلوه بشكره." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وحذّرهم من مفسدة كبيرة، ألا هي صدُّهم عن سبيل الله تعالى، فقال: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ (الأعراف: ٨٦) أي: " لا تجلسون بكل طريق تخوفون من آمن بالقتل، قال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدّونه، ويقولون: إنه كذّابٌ، فلا تذهب إليه على نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله.[(١)]" (محمّد الصابوني)

---

(١) قول شعيب لقومه: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ (الأعراف: ٨٦) يذكرنا بقول إبليس اللعين: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦)، فكل من صدَّ عن سبيل الله هو شيطان، وإن كان في صورة إنسان!!

ثم ختم شعيب تحذيره السابق لهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: اذكروا نعمه عليكم، ومنها أنكم كنتم قلّة مستضعفين في الأرض، فأصبحتم بفضله كثرة في العدد، وعزّة في الجانب، فهلا شكرتم الله على ذلك!

ثم توقع شعيب النبي النابه الفَطِن سببًا من أسباب التي يمكن أن تكون عقبة كؤود في طريق استجابة قومه لدعوته، وهو بغضُهم ما جاء به، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ (هود: ٨٩) أي: لا يحملنكم مخالفتي، وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم، فيحلُّ عليكم من العذاب والنكال، نظير ما حلَّ بنظرائكم من قوم نوح وهود وصالح ولوط.

قال الحسن: " والمعنى: لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار." (محمّد الصابوني)

لله درُّك يا شعيب ناصحًا مشفقًا فَطِنًا!

ثم مزج شعيب ترغيبًا وترهيبًا لهم في قول واحد بديع، فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ (هود: ٩٠)

ثم أعقب ذلك تحذيرهم تحذيرًا واضحًا صريحًا من نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه، لعلَّ ذلك يجد في قلوبهم موقعًا، وإلى نفوسهم مسلكًا، فقال: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ (هود: ٨٤) أي: أخاف عليكم إن لم تؤمنوا أن يحلَّ بكم عذاب مبين مهلك، لن يفلت منه أحدٌ، ويقصد به عذاب يوم القيامة[١].

وتأمّل – وفقك الله للحقّ –: وصف الله تعالى هذا اليوم بالإحاطة بهم، حيث إن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاطهم العذاب.

ولمّا تمادى قوم شعيب في كفرهم وطغيانهم، صعّد شعيب خطيب الأنبياء نبرة حواره معهم، فقابل كفرهم وطغيانهم بوعيد شديد وتهديد أكيد صريح: حيث قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ

---

(١) وذُكر: أن المقصود بالعذاب الذي هدّدهم به شعيب: عذاب النار في الآخرة، وقيل: عذاب الاستئصال في الدنيا، ولا مانع من أن يكون العذاب كل ما سبق، والله أعلم.

إِنِّي عَـٰمِلٌ﴾ (هود: ٩٣) أي: " اعملوا على طريقتكم إني عامل على طريقتي، كأنه يقول: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، فأنا ثابت على الإسلام." (محمّد الصابوني)

وقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ (هود: ٩٣) أي: ستعلمون غدًا مَن الذي سيحلّ عليه عذاب يهينه ويفضحه؟ وعندئذ ستعلمون من الكذّاب الأشر؟

وقال: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (هود: ٩٣) أي: " انتظروا عاقبة أمركم إنني منتظر معكم." (محمّد الصابوني)

فكان هذا الخطاب القوي تهديد أكيد، ووعيد شديد بأنهم إنْ اِسْتَمَرّوا على نهجهم وكفرهم، سيحلّ عليهم عذاب يخزيهم في الدنيا، مع ما ينتظرهم من العذاب السرمدي في الآخرة.

وأخيرًا ختم شعيب خطابه شديد اللهجة بعبارة قويّة رنانة، حيث قال: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٨٦) أي: انظروا بقلوبكم، وتفكروا بعقولك، ما حلَّ بالأمم السابقة حين عصوا رسل الله، فانتقم الله منهم فاعتبروا بحالهم.

وسنعرف: لِمَ لجأ شعيب إلى هذا التهديد الشديد؟ عند حَديثنا عن موقف أهل مدين السيّئ منه ومن أتّباعه المؤمنين إن شاء الله ربّ العالمين.

هكذا دعا شعيب قومه إلى الله تعالى، بعباراته القويّة الفخمة، وكلماته الرنانة الجزلة.

بعدما دعاهم شعيب لهذا الأساس المتين وهو توحيد الله وتقواه، شرع – عليه السلام – يبيّن لهم ما يُصلح حياتهم وينهض ببناء دولتهم، ألا هو تركهم معاملاتهم الماليّة الجشعة القبيحة، ولما كانت هذه المعاملات الماليّة مترسخة في نفوسهم وقلوبهم، دعاهم لتركها بأبلغ العبارات، وأدقّ الكلمات، وأبين النصيحات، فهو خطيب الأنبياء، وفصيح أصحاب الرسالات.

فبدأ – عليه السلام – يهدم معاملاتهم الماليّة الجشعة المتأصلة في نفوسهم معاملة إثر معاملة، فبدأ أوّلًا بتطفيفهم المكيال ونقص الميزان، فقال: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٨١) أي: " أوفوا الناس حقوقهم في الكيل والميزان."

(محمّد الصابوني)

وعلّ ذلك بـ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ (هود: ٨٤) أي: إني أراكم في سعة تغنيكم عن نقص الكيل والميزان.[١]

ونصحهم بإقامة الوزن بالقسط، فقال: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ (الشعراء: ١٨٢) أي: زنوا بالميزان العدل، فقد كانوا يأخذون بالزائد، ويعطون بالناقص.

بعد ذلك انتقل إلى هدم عادة ماليّة ثانية أشدّ قبحًا من الأولى، وهي بخس أشياء الناس، فقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ (الشعراء: ١٨٣) أي: " لا تنقصوا حقوق الناس بأي طريق كان بالهضم أو الغبن، أو الغصب، أو نحو ذلك." (محمّد الصابوني)

فالقضية ليس ركعات تُقام وتُصلى، وساعات تصام وتُقضى، إنما القضية قضية حسابات وتُعاملات بالدرهم والدينار والدولارات!

---

(١) وقد فُسر (الخير) برخص الأسعار، وفُسر بزينة الحياة الدنيا، وفسر بسعة من الرزق وكثرة من النعم، ولا مانع أن يفسر (الخير) بكل ما سبق.

وتأمّل – وفقك الله للحقّ –: " التعبير القرآني القائل: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ (الشعراء: ١٨٣) كلمة الشيء تطلق على الأشياء الماديّة والمعنويّة، أي ليست مقصورة على البيع والشراء فقط، بل تدخل فيها الأعمال أو التصرفات الشخصيّة، ويعني النصّ تحريم الظلم، سواء كان ظلمًا في وزن سلعة من السلع، أو ظلمًا في تقييم مجهود الناس وأعمالهم، وذلك أن ظلم الناس يشيع في جوّ الحياة مشاعر من الألم واليأس واللامبالاة، وتكون النتيجة أن ينهزم الناس من الداخل، وتنهار علاقات العمل، وتلحقها القيم، ويشيع الاضطراب في الحياة." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

وهكذا: بعدما استكمل شعيب هدم عاداتهم الماليّة الجشعة، أخذ يحذرهم من مغبة الإفساد في الأرض، فقال: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ (الشعراء:١٨٣) أي: لا تفسدوا في الأرض بقطع الطرق، وإخافة المارّة، والنهب، والقتل.

قال ابن جرير الطبري: " وأصل العثي شدّة الإفساد، بل هو الإفساد، يقال: عثى فلان في الأرض ....، إذا تجاوز في الإفساد." (ابن جرير: ٢٠٠٢)

وعلّل نصحه لهم بعدم الإفساد في الأرض بدليل منطقي صحيح، حيث قال لهم: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ (هود: ٨٦)

أي: رزق الله لكم خير من أخذ أموال الناس بالباطل، فقليل الحلال خير من كثير الحرام ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (هود: ٨٦) " شَرَطَ هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين."

(القرطبي: ٢٠٠٢)

ولمّا كان من المتوقع أن يظنّ أهل مدين أصحاب الفكر المادي أن شعيبًا يهدف من وراء دعوته هذه تحصيل مكاسب دنيويّة، فأَكّدَ لهم: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٠) أي: دعوتي لكم دعوة خالصة متجردة من كل أطماع الدنيا الزائفة.

وختم كلامه معهم قائلًا: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ (هود: ٨٦) فأنا لست عليكم مراقبًا محصيًا أعمالكم لأثيبكم عليها، فما أنا إلّا ناصحٌ أمينٌ.

◎ موقف أهل مدين السيّئ من دعوة شعيب:

سمع أهل مدين مقولات نبيّهم شعيب، فاستغربوا من منطق شعيب ودعوته أيما استغراب، كيف يأمرهم بإفراد الله بالعبادة، وترك عبادة الآلهة التي ورثوها عن الآباء والأجداد، فقالوا هزئيين ساخرين: ﴿يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ

ءَابَآؤُنَآ﴾ (هود: ٨٧) أي: أتأمرك صلاتك أن نترك عبادة الأصنام؟![1]

ولِمَ أسندتْ مدين الأمر للصلاة من بين سائر العبادات؟

ذكر: أن أهل مدين أسندوا الأمر للصلاة من بين سائر العبادات التي كان يقوم بها شعيب؛ لأنه كان – عليه الصلاة والسلام – كثير الصلاة.

ويحتمل سبب استخفاف أهل مدين بالصلاة لِما في الصلاة من خطورة على تعديل الحياة التي يبغونها عوجًا.

الحاصل: استغربت مدين أكثر وأكثر من ربّط شعيب العبادة بمعاملاتهم الماديّة، فتساءلوا بدهشة ساخرة: ما شأن العبادة ببيعنا وشرائنا، وكافة معاملاتنا؟! حيث قالوا: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾[2] (هود: ٨٧) وحرف العطف (أو) بمعنى الواو، أي: وأصلاتك تأمرك أيضًا أن نترك معاملاتنا الماليّة؟!

---

(١) قال الصابوني: " وقد يُراد بالصلاة الدين، والمعنى: أدينك يأمرك بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة؛ لأنَّها أظهر شعائر الدين." (محمّد الصابوني)

(٢) قد يأخذ من هذه الآية أن الزكاة كانت واجبة على الأمم السابقة، ويدلُّ على ذلك – أيضًا – قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ (مريم: ٥٥)، والله أعلم.

قال عتيق: " فقصدوا بسؤالهم لشعيب الهزء والسخرية والتهكم لا حقيقة الاستفهام." (عبد العزيز عتيق: ٢٠٠٠)

والعجب أن قوم شعيب ظنوا أن في منطقهم السابق هذا قمّة في الذكاء؛ حيث أنكروا أن تكون هناك علاقة أساسًا بين سلوك الناس الاقتصادي والدين.

هذه المحاولة القديمة قِدَم عمر قوم شعيب هي هي نفس محاولات العديد من الأقوام الذين يعيشون في زماننا، يتساءلون: ما للإسلام وسلوك الإنسان الشخصي، وحياته الاقتصاديّة، وأساليب البيع والشراء والإنتاج وطرائق التوزيع؟! ما للإسلام وحياتنا اليوميّة؟!

وبذلك يكون أهل مدين من أوائل من أثار شبهة فصل الدين عن الحياة، ويكون شعيب من أوائل مَنْ دحض هذه الشبهة الماكرة، حيث قال: ﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ (الأعراف: ٨٦) أي: تريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، بزعمكم الكاذب أن دين الله غير ملائم لحياتكم، فما أكذبكم!!

ولعمرك ما زُعم ذلك قديمًا أو حَديثًا إلّا بسبب أن هذا الدين المستقيم لا يناسب أهواء هؤلاء الكفرة الفجرة ذوي القلوب العفنة الخربة!!

الحاصل: بعدما صرحت مدين بهذا الفهم المعوج، عاودوا الاستهزاء والسخرية بشعيب مرّة ثانية، حيث قالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ (هود: ٨٧) أي: لو كنت حليمًا رشيدًا حقًّا، لما قلتَ هذه المقولة.

قال بعض العلماء: خاطب أهل مدين شعيبًا بذلك بحسب نظر شعيب واعتقاده، وقال بعضهم: كان أهل مدين يعتقدون حقيقة أن شعيبًا حليم رشيد، والأقرب أنهم قالوا ذلك تهكمًا واستهزاءً.

وتأمّل – يعصمك الله من كل شرّ –: الوصف الذي وصفوه لشعيب متحقّق من حيث الواقع، وإن كانوا لا يعتقدونه، وقالوه تهكمًا.

على كل حال: كظم شعيب غيظه عليهم رغم إدراكه أن قومه يسخرون منه، وزادهم رقّة في الخطاب، ولطافة في الحوار؛ لعلَّهم يتذكرون ويرجعون، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ (هود: ٨٨) أي: قال لهم شعيب: " أخبروني إن كنت على برهان من ربّي وهو الهداية والنبوّة." (محمّد الصابوني) ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ (هود: ٨٨) أي: أعطاني الله أصنافًا من المال.

قال الزمخشري: " والجواب محذوف دلَّ عليه المعنى أي أخبروني إن كنت على حجّة واضحة، ويقين من ربّي، وكنت نبيًّا على الحقيقة أيصحُّ لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي؟!" (محمّد الصابوني)

وقال لهم: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ (هود: ٨٨) أي: لست أنهاكم عن أمر وآتيه، إنما يوافق قولي عملي، وما آمركم به ألزم نفسي به أوّلًا.

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتيَ مِثْلَهُ * * * عارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْتَ عَظيمُ

وقال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ (هود: ٨٨) أي: لا أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلّا إصلاحكم، وإصلاح أمركم بقدر استطاعتي، ويفهم ضمنًا من ذلك: أن ما جاء به شعيب هو عين صلاح أحوالهم!

وهذا الإصلاح هو المعنى الرئيسي والمضمون الحقيقي لدعوة الأنبياء، إصلاح للقلوب بتحقيق التوحيد الخالص لله، وإصلاح للعقول بإزالة حجب الجهل عن الله، وإصلاح للحياة بجعلها مستقيمة سويّة.

ولما كان قول شعيب السابق عن الإصلاح أقرب إلى تزكية النفس، دفع شعيب عن نفسه ذلك، فقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾

(هود: ٨٨) أي: ما يحصل لي من توفيق لقول الخير والعمل به، إنما هو بمعونة من الله وتأييده بدون حول مني ولا قوّة.

ثم ختم نصيحته المشفقة المخلصة بـ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨) أي: على الله اعتمادي في كل أموري وأحوالي، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة.

وتأمّل: ختم شعيب نصيحته السابقة بالتوكل على الله والإنابة إليه!

قال السعدي: " لأنه بهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربّه، والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ (هود: ١٢٣)، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وهكذا قابل شعيب استهزاء قومه بردود هادئة لبقة، فهل تتوقف مدين عن صدها وتكذيبها؟!

للأسف، لم تتوقف وفي هذه المرّة اتّهموه بأنه مغلوب على عقله بالسحر: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٥) أي: " ما أنت إلّا من المسحورين، سُحرت كثيرًا حتى غُلبت على عقلك." (محمّد الصابوني)

ومرّة ثالثة اتّهموا شعيبًا بعدم وضوح دعوته، فقالوا: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (هود: ٩١) أي: قالوا لنبيّهم شعيب على وجه الاستهانة والاستهزاء ما نفهم كثيرًا ممّا تحدثنا به، قال الألوسي: " جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه، مع أنه كما ورد في الحَديث الشريف: " **أنه خطيب الأنبياء**."[١] (محمّد الصابوني)

وتأمّل – يا رعاك الله –: هذا ديدن الكافر المُفحم المَحْجوج، إذا ضاقت عليه الحيل ولم يجد إلى المحاورة سبيل، قابل النصائح بالسبّ والإبراق والإرعاد!!

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: (٤٠٧١)، والحديث لا يصحُّ مرفوعًا، وإنما أرسله ابن الماجشون، وهو في تفسير الطبري وتاريخه، وفي تفسير ابن أبي حاتم، وقد سكت عنه الذهبي في التلخيص.

وقفة دعوية: لِمَ لَمْ يعلق شعيب على قولهم: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (هود: ٩١)؟

لم يعلق شعيب على قولهم هذا؛ لأنّ كلامه بيّن واضح لا يحتاج إلى شرح، فغفل شعيب عن الردّ عليهم استخفافًا بقولهم، وكأن كلامهم هذا في حكم العدم لمخالفته الواقع.

ومرّة رابعة اتّهموه بالكذب في دعواه: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٦) أي: نحن على يقين أنك من الكذّابين الذين يقولون على الله غير الحقّ.

ثم أثاروا شبهة واهية: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ (الشعراء: ١٨٦) أي: أنت شخص عادي مثلنا، فَلِمِ أُخْتُصت النبوّة بك من دوننا؟ وفينا من هو أشرف منك!

ويبدو أن مدين رأت أن أسلوبها القامع الزاجر لم يثنِ شعيب عن دعوته، فغيرت من أسلوبها مع شعيب، فتحولت من السخرية والاستهزاء إلى التهديد بالعقاب والتلويح بإيقاع العذاب، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ (هود: ٩١) أي: لا قوّة لك ولا عزّ فيما بيننا،

كونك وحيدًا ذليلًا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا؛ ولأنّ عشيرته ليسوا على دينك.[١]

يا للعجب!! مدين عدّت شعيبًا ضعيفًا بمقياسهم الماديّة المعوجة حيث عدّته ضعيفًا؛ لأنّ أكثر أتّباعه من الفقراء المغلوبين على أمرهم، أمّا أشراف القبيلة ورؤساؤها فليسوا بأتّباعه، ولعمرك هذا في القياس لناقص مردود، فمتى كانت القوّة بالرجال أو بالمال أو غير ذلك؟ إنما القوّة قوّة الله وبيد الله، والله مع أنبيائه بنصره وتأييده ومعيته.

قال الكحلوت: " إن قوم شعيب قد أساءوا تقدير حقيقة القوى في هذا الوجود، فإن الله وحده العزيز، والمفروض أن يدركوا ذلك، المفروض ألّا يقيم الإنسان وزنًا في الوجود لغير الله، ولا يخشى في الوجود غير الله، ولا يعمل حسابًا في الوجود لقوّة غير الله، إن الله هو القاهر فوق عباده." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

---

(١) ذكر المفسرون أقوالًا في المقصود بـ (ضعيف): أن شعيب كان ضعيف البصر، وقيل: كان أعمى، وقيل: ضعيف البدن، وهذه أقوال غير صحيحة، والله أعلم.

على كل حال ضاقت مدين ذرعًا بشعيب ودعوته؛ لذا صعّدت مدين من نبرة تهديدها لشعيب، فقالوا: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ (هود: ٩١) أي: " ولولا جماعتك لقتلناك رميًا بالأحجار."

(محمّد الصابوني)

وقالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ (هود: ٩١) أي: العزيز علينا يا شعيب قبيلتك لا أنت، وليس لك قدر في قلوبنا، ولا احترام في نفوسنا، حتى نمتنع من رجمك، إنما تركناك احترامًا لقبيلتك؛ لأنهم من أهل ديننا.

تعجب شعيب من سفاهة قومه، فقال متأسفًا: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (هود: ٩٢) أي: تخافون قبيلتي وعشيرتي، وتراعوني بسببهم، ولا تراعوني كوني رسول الله، وأيضًا لا تخافون عذاب الله!

والمعنى: أي: أصار رهطي في قلوبكم أعزّ عليكم من نبي الله، ولو كان قولهم على معنى ما عززت علينا لمّا كان الجواب مطابقًا.

ثم أنبهم على تركهم الاستجابة لدعوته، فقال: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ (هود: ٩٢) أي: " نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا خفتم منه، وهذا مَثَلٌ، قال الطبري: يقال للرجل إذا

لم يقض حاجة الرجل: نبذ حاجته وراء ظهره أي: تركها ولم يلتفت إليها." (محمّد الصابوني)

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (هود: ٩٢) أي: إن ربّي عالم بما تعملون، محيط بذلك كله، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

◎ موقف أهل مدين السيّئ من أتّباع شعيب المؤمنين:

أطال شعيب دعوة قومه باذلًا لهم غاية النصح، ولكنهم – ويا للأسف – لم يزدهم ذلك إلّا تماديًا في البغي والضلال، اللهمَّ إلّا نفرًا منهم استجابوا لدعوة شعيب، وحتى هؤلاء لم يسلموا من أذى قومهم لهم، حيث هددوهم بإخراجهم مع شعيب من قريتهم عقابًا لهم على إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ (الاعراف: ٨٨)

فخيّروهم بين خيارين اثنين لا ثالث لهما: إمّا الطرد والتشريد في البلدان، أو العودة إلى الكفر واتّباع ملّة الآباء والأجداد!

فماذا يختار شعيب والذين آمنوا معه؟!

انتصب خطيب الأنبياء قائلًا: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ (الأعراف: ٨٨) أي: أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في ملّتكم، ولو كنا كارهين ذلك، والاستفهام للإنكار.

وقال: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: اشهدوا علينا أننا إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله من شرّه، وهدانا للإيمان والتوحيد أننا نكون بذلك أفاكون مختلقون على الله أعظم الكذب.

وقال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: " فلا يمكننا، ولا يمكن غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وقال: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: أحاط علمه بكل شيء من الأشياء ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: اعتمدنا عليه وهو كافينا وحسبنا.

وتأمّل – يا رعاك الله-: قال شعيب هذا الكلام ليقطع أي بصيص أمل لدى مدين في انتكاس شعيب واتّباعه، وعودتهم إلى دينهم، لله درُّه نبيًّا كريمًا!!

◎ هلاك أهل مدين:

اِسْتَمَرَّ الصراع مشتعلًا حادًّا بين شعيب وقومه الكافرين، لا سيما رؤساؤهم وإشرافهم المستكبرون، وقد ظهر لشعيب جليًّا أن مدين صار لا أمل فيهم، فقد ناصبوه العداء الشديد، وتوعدوه بالرجم والتشريد.

ولم يكتفِ أهل مدين بذلك، بل سخروا ممّا توعدهم به شعيب من العذاب والتنكيل، فقالوا مستهزئين ساخرين: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (الشعراء: ١٨٧) أي: أنزل علينا ما تهددنا به من العذاب، وليكن قطعًا من السماء ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٧) أي: إن كنت حقًّا صادقًا فيما تتوعدنا به، قالوا ذلك مبالغة في الاستهزاء والتكذيب.

قال الرازي: " إنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه، فظنّوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه." (محمّد الصابوني)

عندئذ استنصر شعيبٌ ربَّه عليهم في تعجيل ما يستحقونه من عذاب أليم، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: " احكم بيننا وبينهم بحكمك الحقّ الذي لا جور فيه ولا ظلم، وأنت خير الحاكمين." (محمّد الصابوني)

ما فتح الله لعباده؟

قال السعدي: " وفتحه لعباده نوعان: فتح العلم بتبيّن الحقَّ من الباطل ....، والفتح الثاني: فتحه بإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

الحاصل: سمعت مدين هذا الدعاء الصريح من نبيّهم بإيقاع الهلاك عليهم، وكان من البدهي أن يتوقفوا عن الصدّ والتكذيب على الأقلّ، ولكن العجب أنهم صمّموا على ما هم عليه مشتملون، وبه متلبسون، حتى قال ملؤهم الكافرون: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذَا لَّخَٰسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٠) أي: " قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة: إذا اتّبعتم شعيبًا وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذًا لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى!" (محمّد الصابوني)

يا لسخف عقولهم!!

نبيُّهم يستنصر ربَّه عليهم، وهم يُصرّون على استبدال الهلاك بالنجاة!

الحاصل: خرجت دعوة شعيب عليهم، ومن سنن الله ألّا يرد دعاء رسله لا سيما إذا استنصروه على الذين يجحدونه، فأهلك الله تعالى مدين.

فكيف كان هلاكهم؟

بدأ هلاكهم بأنْ سلّط الله عليهم الحرَّ، وبعدما أخذ الحرُّ منهم كل مأخذ، أنشأ الله لهم ظُلّة (أي: سحابة)، فاجتمعوا تحتها، للفرار من شدّة الحرّ، فلمّا تكاملوا فيها أرسلها الله عليهم ترميهم بشرر ولهب كالقصر، فأهلكتهم احتراقًا كما يحترق الجراد في القِدْر ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾[1] (الشعراء: ١٨٩)

وفوق هذا وذاك إذ بالأرض ترجف بهم رجفة شديدة مدمّرة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ (الأعراف: ٨٩) أي: حصدتهم زلزلة واحدة عظيمة.

ثم عمّتهم من فوقهم صيحة مدوّية مهلكة ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ (هود: ٩٤)، أي: " وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب." (محمّد الصابوني)

فيا لشدّة عذابهم!! نيران تلتهم أجسادهم، ورجفة تزلزل الأرض من تحت أقدامهم، وصيحة تدوّي من فوق رؤوسهم!! **فكانت**

---

(١) **يوم الظلّة:** هو اليوم الذي أنزل فيه الله المنتقم الجبّار عذابه الأليم على أهل مدين الطغاة المارقين، والظلّة: سِمة ذلك اليوم، قال الطبري: " الظلّة سحابة ظلّلتهم، فلمّا تتاموا تحتها، التهبت عليهم نارًا وأحرقتهم." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

النتيجة: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ (الأعراف: ٩١) أي: " فأصبحوا ميتين جاثمين على الركب." (محمّد الصابوني)

الحاصل: كان يوم الظلّة يومًا من أيام الله الشديدة العذاب على الكافرين من مدين، قال تعالى عنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٨٩) أي: عذاب يوم هائل مشهود فظيع، حيث اجتمع على أهل مدين الكافرين أنواع من العقوبات، وصنوف من المثلاث، وأشكال من البليات، لِما اتّصفوا به من قبيح الصفات جزاء وفاقًا، فكانوا هم الخاسرين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبًا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٩٢) قال القرطبي: " وهو مبالغة في الذمّ والتوبيخ ....، ولمّا قالوا: من اتّبع شعيبًا خاسر قال الله: الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول." (القرطبي: ٢٠٠٢)

يا الله !! حلَّ بمدين عذابٌ هائلٌ، حتى أنه صار يخيل للناظر إلى مصرعهم كأنهم لم يقيموا في نعمة قطّ، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾ (هود: ٩٥) أي: كأنهم لم يقيموا في ديارهم لحظة واحدة منعمين آمنين.

عمَّ الهلاك أهل مدين، ولم ينجُ منه إلّا شعيب ومن معه من المؤمنين ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ

بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ (هود: ٩٤) أي: لمّا جاء الأمر بهلاك مدين نجينا شعيبًا والمؤمنين برحمة منا.

هكذا هلكت مدين فسحقًا لها ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ (هود: ٩٥) قال الطبري: " أي: ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

رأى شعيب مصرع قومه الذليل، فنعاهم إلى أنفسهم متأسفًا، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ (الأعراف: ٩٣) أي: قال شعيب ذلك لشدّة حزنه عليهم؛ لأنهم عصوا أمره ولم يتّبعوا نصحه، ثم سلَّ نفسه: ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ (الأعراف: ٩٣) أي: كيف أحزن على من لا يستحقُّ أنْ يُحزنَ عليه، قال الطبري: " أي: كيف أحزن على قوم جحدوا وحدانيّة الله، وكذبوا رسوله، وأتوجع لهلاكهم."

(ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

o o o o

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصّة شعيب
– عليه السلام –

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ (يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة من قصّة شعيب – عليه السلام –

تمهيد:

قصة شعيب كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة من قصّة شعيب عليه السلام:

١. خطورة التطفيف في المكاييل والأوزان:

برزت في قصّة شعيب قضية من قضايا البيوع وهي التطفيف، والمراد بالتطفيف: البخس في الميكال والميزان إمّا بالازدياد عند الاقتضاء من الناس، قال تعالى: ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ (المطففين: ٢)، أي: إذا أخذوا من الناس الكيل يأخذون حقَّهم بالوافي والزائد، وأمّا إذا كالوا للناس أو وزنوهم لهم فإنهم ينقصون

الكيل والميزان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ٣)

ولخطورة التطفيف توعّد الله تعالى مرتكبه بالهلاك والدمار والعذاب، حيث قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: ١) أي: العذاب الشديد سيكون لهؤلاء المطففين في الآخرة.

والعجب في المطفف تجده في بخسه المكيال والميزان يقتطع شيئًا يسيرًا بغير حقّ، ولكن هذا الشيء اليسير المقتطع من حقوق الناس جعله الله سببًا في خسارته الدنيا قبل الآخرة.

وقد يقال: أليس من الإجحاف والظلم مقابلة هذا الذنب البسيط التافه بذاك العقاب الشديد المروع؟

نعم، ليس في ذلك ظلم أو إجحاف، فمن تجرأ على أخذ شيئًا تافهًا يسيرًا يتجرأ على أخذ الشيء العظيم النفيس الغالي، ومن أحسن من الله حكمًا.

وقد يقال: لِمَ ذكر الله تعالى هذه القضية في قصّة شعيب؟

ذكر الله تعالى هذه القضية في قصّة شعيب؛ لأنّ بعض الناس يظنّون أنَّ الدين تلفظٌ بكلمة التوحيد وحسب، إنما الدين منهج حياة للناس.

٢. أبغض الناس إلى الله تعالى:

يبغض الله المعصية الواقعة ممّن لا رغبة فيها، ولا داعي إليها، أكثر من بغضه للمعصية الواقعة ممّن له رغبة فيها، وله داعي إليها، وإن كانت قبيحة من كليهما.

جاء في **حَديث الثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم.** (رواه النسائي: (١٣١٥) وأحمد: (١٣٥٥))، فقد جعل الحَديث هذه الخصال المذمومة في هؤلاء الثلاثة أشدّ مَذَمّة، وأكثر نكرة من غيرهم، لضعف الداعي للمعصية عندهم.

فالغني الظلوم مذمومٌ عند الله تعالى أكثر من غيره من الظالمين، وسبب زيادة كره الله له أنه قد توفرت له أسباب القوّة والتمكين من النعمة والمال، فليس بحاجة إلى الظلم.

وقوم شعيب كانوا بخير وأصحاب مال ونِعَم، ومع ذلك كانوا يسلبون الناس أموالهم ويخسرون الميزان، فكانت معصيتهم أقبح من غيرهم، لعدم احتياجهم لهذا النهب والسلب، قال شعيب موبخًا لهم:

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ (هود: ٨٤)

وليس معنى ذلك أن النهب من الفقير المحتاج جائز، بيد أنه من الغني أقبح.

٣. خطورة التشوف لِما في يد غيرك:

الدافع الأبرز لأهل مدين على سلبهم أشياء الناس بغير حقّ، هو تشوفهم وتطلعهم لِما في أيدي الناس؛ لذا نبّهم نبيُّهم شعيب – عليه السلام – على أهمية الرضى بما قسمه الله لهم، وقصر النظر على ما في أيديهم من غير تطلع إلى ما عند غيرهم.

قال شعيب لهم: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (هود: ٨٦) فنبّههم أن يقصروا نظرهم على رزق الله الذي في أيديهم، وذلك خير لهم من تطلعهم وتشوفهم لِما في أيدي غيرهم.

قال الجاحظ: " قال أعرابي: رأيت جارية حسناء الساعد فقلت: يا جارية، ما أحسن ساعدك! فقالت: أجل، لكنه لم تختصّ به، فغض بصر جسمك عمّا ليس لك؛ لينفتح بصر عقلك فترى ما لك." (الجاحظ: ٢٠١٠)

٤. الحريّة هي الالتزام بالشرع:

الإنسان في حركاته وسكناته ومعاملاته تحت حكم الشرع، وادّعاء الحريّة في ذلك إنما هو مذهب باطل مردود، وهو مذهب الإباحيين المتحررين الكافرين الملحدين الداعين إلى إبطال أحكام الدين، وهذا المذهب يشبه إلى حدّ كبير مذهب أهل مدين.

فعندما أنكر عليهم شعيب – عليه السلام – معاملاتهم الظالمة قالوا له: ﴿يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ (هود: ٨٧)

٥. بغض الشيء السبب الأساسي لعدم فهمه:

قال أهل مدين لشعيب: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (هود: ٩١)، فما الذي منع مدين من عدم فهم شعيب؟

قد يكون المانع بسبب نقص عقول أهل مدين أو صعوبة دعوة شعيب، أو غير ذلك من الأسباب.

ولكن السبب الحقيقي الكامن وراء عدم فهم أهل مدين لدعوة شعيب، هو بغضهم لدعوته ونفورهم منها.

٦. أهمية موافقة القول العمل:

موافقة القول العمل من أهمّ أسباب قبول النصح والتذكير، وضدّ ذلك صفة مردودة ذميمة شنّعها الله تعالى على علماء بني إسرائيل وخطبائهم في آخر زمانهم، حينما تلبسوا بها، قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ (البقرة: ٤٤)

وفي الحَديث الصحيح قال صلى الله عليه وسلم: " **يُؤتى بالرجلِ يومَ القيامةِ، فيُلقى في النار فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بطنِهِ** (أي: تخرج أمعاؤه من بطنه)، **فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرحى، فيجتمعُ إليه أهلُ النار، فيقولونَ: يا فلانُ ما لكَ؟ ألم تكنْ تأمُرُ بالمعروفِ وتنهى عن المنكرِ؟ فيقولُ: بَلى، كنتُ آمُرُ بالمعروفِ ولا آتيهِ، وأنهى عن المنكرِ وآتيهِ.**"

(رواه البخاري: (٣٢٦٧) ومسلم واللفظ له: (٢٩٨٩))

قال ابن كثير: " وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجّار والأشقياء، فأمّا السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربّهم بالغيب، فحالهم كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ (هود: ٨٨)"

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقال ابن عمر: ما حمل رجل حملًا أثقل من المروءة، فقال له أصحابه: صف لنا ذلك! فقال: ما له عندي حدّ أعرفه إلّا أني ما استحييت من شيء قطّ علانية إلّا استحييت منه سرًّا.

ولله درُّ المتوكل الليثي:

يا أيُّها الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غيرَهُ * * * هَلا لِنَفْسِكَ كانَ ذا التَّعليمُ
تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ وَذي الضَّنا * * * كَيما يَصحّ بِهِ وأنتَ سَقيمُ
وَتَراكَ تُصْلِحُ بِالرَّشادِ عُقولَنا * * * أَبَدًا وأنتَ مِنَ الرَّشادِ عَديمُ

فابدأْ بِنَفْسكَ فانْهَها عَنْ غَيّها * * * فإذا انْـتَـهَـتْ عَـنْهُ فأنـتَ حَـكيمُ

فَـهُنـاكَ يُقْبَلُ ما تَـقولُ وَيَـهْتَدي * * * بالـقَولِ مِـنْكَ ويَـنْـفَـعُ الـتَّـعـليمُ

لا تَنْهَ عَنْ خُـلُقٍ وَتَـأْتـيَ مِـثْلَهُ * * * عـارٌ عَـليكَ إذا فَـعَلْتَ عَـظيمُ

٧. وما توفيقي إلّا بالله:

يرجع كثير من الناس توفيقهم ونجاحهم في أعمالهم إلى أسباب عدّة، لعلَّ أكثرها دورانًا على الألسنة ما قاله قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ (القصص: ٧٨) أي: " إنما أعطيت هذا المال على علم عندي بوجوه المكاسب." (محمّد الصابوني)

فأرجع قارون تفوقه إلى ما يمتلكه من مواهب وقدرات، ولعمرك هذا في القياس لمنكر قبيح، فالتفوق والنجاح في أي عمل يقوم به الإنسان مرجعه وسببه الحقيقي هو توفيق الله له، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨)

وشتان بين قول: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨)، وقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ (القصص: ٧٨)!

٨. الجزاء من جنس العمل:

من أعظم دعائم العدل معاقبة المذنب والمعتدي بمثل ما اعتدى به، حذو القُذّة بالقُذّة، وقد سير الله تعالى هذه الدعامّة في عقابه للأمم الكافرة، فأهلك مدين بعقوبات ثلاث جزاء وفاقًا، لِما اقترفوه من جرائم، فلمّا أرجفوا نبي الله وأصحابه، وتوعدوهم بالطرد من قريتهم أو العودة في ملّتهم، عاقبهم الله بالرجفة، فقابل الإرجاف بالرجفة.

ولمّا تنقصوا واستهزؤوا بشعيب بقولهم: ﴿يَـٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ (هود: ٨٧)

فعاقبهم بالصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

وعمّتهم الظُّلّة وذلك إجابة لما طلبوه، وتقريبًا إلى ما رغبوا عنه، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (الشعراء: ١٨٥ – ١٨٨)

والجزاء من جنس العمل!

٩. هل أصحاب الأيكة أمّة غير أهل مدين؟

ذكر قتادة وغيره: " أن أصحاب الأيكة أمّة غير أهل مدين." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

واستدلّوا على ذلك بأمرين:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (الشعراء: ١٧٦ – ١٧٧)، فلم يقل: أخاهم كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا﴾ (العنكبوت: ٣٦)

الثاني: ذكر الله أن عذاب أصحاب الأيكة كان يوم الظلّة، وذكر عذاب مدين الرجفة أو الصيحة.

والصواب أنهما أمّة واحدة – إن شاء الله – قال ابن كثير:

" الجواب عن الأوّل أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا، ولمّا نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه

أخوهم، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقال: " وأمّا احتجاجهم بيوم الظلّة، فإن كان دليلًا بمجرده على أن هؤلاء أمّة أخرى، فليكن تعداد الانْتقام بالرجفة والصيحة دليلًا على أنهما أمّتان أخريان، وهذا لا يقوله أحدٌ يفهم شيئًا من هذا الشأن." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقال: " وأمّا الحَديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام: " **أن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمّتان بعث الله إليهما شعيبًا النبي عليه السلام.**"

فإنه حَديث غريب، وفي رجاله من تكلم فيه، والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو، ممّا أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل والله اعلم." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

١٠. بديعة قرآنية (١):

حكى الله تعالى لنا ما قاله المعاندون من ثمود لنبيهم صالح، الذي أمرهم بعبادة الله وحده، حيث قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾ (الشعراء: ١٥٣ – ١٥٤)

أمّا قوم مدين فهذه مقالتهم لشعيب: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ (الشعراء: ١٨٥ – ١٨٦)

وعند التأمل في الآيتين نجدهما اتحادا في الجواب ما عدا زيادة حرف العطف (الواو) في إحداهما، فما السرّ في ذلك؟

قال فضل عباس: " فنحن أمام آيتين متحدتين في الجواب: ذُكر حرف العطف في إحداهما، ولم يذكر في الأخرى، **فما هو السرُّ البياني يا ترى؟**" (فضل عباس وسناء عباس)

يرى الألوسي: " أن سبب زيادة حرف الواو يرجع إلى أن شعيبًا – عليه السلام – كان خطيب الأنبياء عليهم السلام، فأحبّ القوم أن يجاروه فيما وهب من قول فزادوه هذه الواو."

(فضل عباس وسناء عباس)

وقال الكرماني: " أن شعيبًا زاد في الحديث، فزادوا له في القول، وأن صالحًا قلل، فقللوا له." (فضل عباس وسناء عباس)

وقد فصل فضل عباس، فقال: " كلمة (المسحرين) لها معنيان: يمكن أن تفسر بالمسحورين الذين أصيبوا بمس واختلط الأمر عليهم.

ويمكن أن تفسر بمن لهم معدة ورئة يأكلون ويشربون، ومن هذا القبيل ما ورد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: " **توفي**

الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو بين سحري ونحري." (رواه مسلم: ٢٤٤٣)

والذي نراه هنا التفصيل فما قاله قوم صالح – عليه السلام – قصد به هذا المعنى الأخير، وهو المسحورين (بشر يأكلون ويشربون)، وما قاله قوم شعيب – عليه السلام – قصد به المعنى الأول أي المسحورين (الذين أصيبوا بمس واختلط الأمر عليهم).

وبناء على ذلك حذف قوم صالح حرف الواو؛ لئن معنى الجملتين واحد إنما أنت بشر تأكل وتشرب، وما أنت إلّا بشر مثلنا، فالجملة الثانية تؤكد الأولى، فبين الجملتين كمال اتصال؛ لذا لا يجوز أن تتوسط الواو بينهما؛ لئن العطف يقتضي التغاير.

أمّا ما قاله قوم شعيب: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ فكلمة (المسحورين) يجب أن تفسر بالذين مسّهم الشيطان واختلط الأمر عليهم، وهذا يختلف عن كونهم بشرًا، فقوم شعيب ألصقوا بنبيّهم تهمتين كونه مسحورًا أوّلًا، وكونه بشرًا ثانيًا.

ولا شك أن كلا من التهمتين متغايرين؛ لذا توسطت واو العطف؛ لئن العطف يقتضي التغاير كما قلنا، ذلكم هو الإعجاز البياني في الآية.

وبقى نوع من الإعجاز، وهو الإعجاز التاريخي، وهو اتهمت الأقوام الغابرة أنبياءهم بتهم منها السحر، وتهمة السحر لم تكن معروفة عند الأنبياء الأوّل، وإنما كانت متأخرة، وكأن قضية السحر لم تكن مشهورة عند القبائل الأولى قوم نوح وعاد وثمود؛ لذا لا يمكن أن نفسر كلمة المسحورين التي قالها قوم صالح بمن أصابه السحر؛ لئن السحر لم يكن معلومًا لهم، فإن السحر ظهر متأخرًا، وقد حدثنا القرآن عن السحر عند المصريين القدماء، ونحن نعلم قرب المسافة بين مصر ومدين؛ لذا كان السحر معلومًا لهم معروفًا عندهم." (فضل عباس وسناء عباس)

١١. بديعة قرآنية (٢):

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ (الاعراف: ٨٨)، في هذه الآية إشكال وهو أنَّ ظاهر الآية يدلُّ على أن شعيب كان على دينهم قبل إرساله لهم!

قال الدرويش: " إذا كانت (عاد) على معناها الأصلي، فكيف يحسن أن يقال (أو لتعودنَّ) أي: ترجعنَّ إلى حالكم الأولى مع أن شعيب – عليه السلام – لم يكن قطّ على دينهم ولا في ملّتهم؟

وقد أجيب عن هذه الشبهة بأمور:

- أن هذا القول من رؤسائهم قصدوا به التلبيس والإبهام على العموم بأنه كان على دينهم وفي ملّتهم.

- أن يراد بعوده رجوعه إلى حاله قبل بعثته، وهي السكوت؛ لأنه قبل أن يبعث يخفى إيمانه، وهو ساكت.

- تغليب الجماعة على الواحد؛ لأنهم لمّا أصبحوه مع قومه في الإخراج أجروا عليه حكم العود إلى الملّة تغليبًا لهم عليه.

على أن استعمال (عاد) بمعنى (صار) لا يستدعي العود إلى حالة سابقة، بل العكس من ذلك، وهو الانتقال من حالة سابقة إلى حال مؤتنفة، وحينئذ تندفع الشبة تمامًا.

وثَمَّة وجه لطيف فني لردّ الشبة ليس بعيدًا، وهو أن تبقى (عاد) على معناها الأصلي، وهو أن يكون الكلام في وادي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ (البقرة: ٢٥٧)

والإخراج يستدعي دخولًا سابقًا فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان المترعرع على ذراه لم يدخل قطّ في ظلمة الكفر ولا كان فيها، وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قطّ

في نور الإيمان ولا كان فيه، ولكن الإيمان والكفر من الأفعال الاختياريّة، كان تعبيرًا عن السبب بالمسبب لإقامة حجّة الله على عباده." (محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

o o o o

خاتمة الكتاب

عاشت مدين عيشة هانئة هادئة مريحة تجرى عليها نعم الله تَتْرى، فكفرت بنعم ربّها، وآذت خلقَه.

فأرسل الله اليهم رجلًا منهم هو شعيب عليه السلام، نبيًّا كريمًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فدعهم إلى خلع الأنداد والأصنام والأوثان، وعبادة الله الواحد الديّان، ودعاهم لِما يصلح حياتهم وهو نبذ عاداتهم القبيحة من: قطع طرق، وإخافة مارة ورفيق، وتطفيف للمكاييل والموازين، وبخس أشياء الناس، والصدّ عن سبيل الله.

وبالرغم من أن دعوة شعيب كانت غاية في اللطافة واللباقة، فهو خطيب الأنبياء، إلّا أن أهل مدين الكفرة الطغاة قابلوا دعوته اللطيفة البليغة بالسخرية والاستهزاء، ثم بالتهديد والإبراق والإرعاد، وأخيرًا بالطرد والتشريد في البلاد!

كما وتجرؤوا على الهزءِ بوعيد الله، فاستحقوا دعوة شعيب عليهم بتعجيل ما سخروا به من عذاب ونكال.

وكان بدء هلاكهم أن سلّط الله عليهم الحرَّ، ولمّا اشتدَّ بهم الحرُّ وقيظه، أرسل الله إليهم سحابة عظيمة، ما أن رأوها استبشروا بها استبشارًا عظيمًا، فهرعوا إليها سراعًا؛ لتظلهم من لفح الحرّ

ولهبه، فكانت لهم كأنها ظلّة، ولمّا تكاملوا تحتها إذ بها عذاب أليم، ترميهم بشرر كالقصر العظيم!

وأثناء هذا الموقف الهائل العظيم إذ بالأرض ترجف بهم رجفة شديدة مدمّرة، ثم جاءهم من فوقهم صيحة مدوّية مهلكة، فأصبحوا هلكى في ديارهم جاثمين، فبعدًا لمدين كما بعدت ثمود!!

قائمة المراجع:

١ – إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٢ – إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد على الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.

٣ – عبد الرحمن السعدي، قصص الأنبياء، دار أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.

٤– عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٠ م.

٥ – عدنان محمد الكحلوت، إعلام السادة النبلاء بسيرة صفوة العالمين من المرسلين والأنبياء، مكتبة دار المنارة، ٢٠١١ م.

٦– عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة ابن سينا، ٢٠١٠ م.

٧– فضل حسن عباس وسناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.

٨– محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.

٩ – محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، ٢٠٠٥ م.

١٠– محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار ابن حزم، ٢٠٠٢ م.

١١– محمد على الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.

١٢ – محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.

١٣– محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١ م.